

بسم الله الرحمن الرحيم
المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير
تفسير سورة النساء (١٨)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.
قال المفسر -رحمه الله تعالى-: وقوله: **{وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَوْلَاءَ هُوَ لَأَمْنُوا سَبِيلًا}** [٥١] (سورة النساء) أي: يفضلون الكفار على المسلمين بجهلهم وقلة دينهم وكفرهم بكتاب الله بأيديهم.
وقد روى ابن أبي حاتم عن عكرمة قال: جاء حيي بن أخطب وكعب بن الأشرف إلى أهل مكة فقالوا لهم: أنتم أهل الكتاب وأهل العلم فأخبرونا عنا وعن محمد، فقالوا: ما أنتم وما محمد؟ فقالوا: نحن نصل الأرحام وننحر الكوماء ونسقي الماء على اللبن ونفك العنابة ونسقي الحجيج، ومحمد صنوبر قطع أرحامنا واتبعه سراق الحجيج بنو غفار، فنحن خير أم هو؟ فقالوا: أنتم خير وأهدى سبيلاً، فأنزل الله **{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا}** الآية [٥١] سورة النساء] وقد روي هذا من غير وجه عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- وجماعة من السلف.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:
فهذه الآية نازلة في اليهود حينما ذهبوا إلى المشركين يحرضونهم على قتال النبي -صلى الله عليه وسلم- بعد غزوة أحد فلما سألهم المشركون عن حالهم وعن حال النبي -صلى الله عليه وسلم- قالوا ما قالوا، وسجدوا لآلهة المشركين تأكيداً لهم أن ما هم عليه من عبادة الأصنام هو الحق وأن ما جاء به النبي -صلى الله عليه وسلم- هو الباطل.

وقولهم عن النبي -صلى الله عليه وسلم-: إنه صنوبر يعني لا عقب له؛ أي: إنه إذا ذهب انقطع ذكره، والصنوبر يطلق أيضاً على النخلة المنفردة عن النخل، أو التي يدق أصلها يعني يكون دقيقاً توشك أن تتقلع وينتهي أمرها، فهم يشبهون النبي -صلى الله عليه وسلم- بذلك، فيقولون: هذا الرجل يوشك أن يذهب ويضمحل ذكره، أو أنه منقطع منفرد وحده دون جماعتهم، فهو فرقه حيث جاءهم بشيء لم يعرفوه ولم يعرفه آباؤهم، وقطع أرحامهم واتبعه سراق الحجيج.. الخ.

هذا هو وصف النبي -صلى الله عليه وسلم- وأصحابه عندهم لما جاء بالإسلام، وهكذا فالإنسان لا يستطيع أن يضع على أفواه الناس ما يلجمها، فهم يتكلمون ولا زال أهل الباطل يتكلمون ويصفون أهل الحق بشتى الأوصاف القبيحة والله -عز وجل- هو الموعد.

وهذا لعن لهم وإخبار بأنهم لا ناصر لهم في الدنيا ولا في الآخرة؛ لأنهم إنما ذهبوا يستنصرون بالمشركين وإنما قالوا لهم ذلك ليستميلوهم إلى نصرتهم وقد أجابوهم وجاءوا معهم يوم الأحزاب.

قوله: "وهذا لعن لهم وإخبار بأنهم لا ناصر لهم في الدنيا ولا في الآخرة" هذا الكلام عن الآية التالية وهي قوله تعالى: **{أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا}** [٥٢] سورة النساء].

حتى حفر النبي -صلى الله عليه وسلم- وأصحابه -رضي الله تعالى عنهم- حول المدينة الخندق فكفى الله شرهم {وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ قَوْمًا عَزِيزًا} (٢٥) سورة الأحزاب].

{أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا* أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا* فَمِنْهُمْ مَّنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَّنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا} (٥٣-٥٥) سورة النساء].

يقول تعالى: {أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ} (٥٣) سورة النساء] وهذا استفهام إنكاري أي: ليس لهم نصيب من الملك، ثم وصفهم بالبخل فقال: {فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا} (٥٣) سورة النساء] أي: لأنهم لو كان لهم نصيب في الملك والتصرف لما أعطوا أحداً من الناس ولا سيما محمد -صلى الله عليه وسلم- شيئاً ولا ما يملأ النقيير وهو النقطة التي في النواة، في قول ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- والأكثرين.

يقول: {فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا} (٥٣) سورة النساء] "أي: لأنهم لو كان لهم نصيب في الملك والتصرف لما أعطوا أحداً من الناس شيئاً ولا سيما محمد صلى الله عليه وسلم" الفاء هنا للسببية الجزائية، ويكون هناك شرط محذوف بمعنى أن الكلام يكون هكذا: أم لهم نصيب من الملك فلو كان لهم ذلك أو فإن أعطوا نصيباً من الملك فإذا لا يؤتون الناس نقيراً، أي لا يعطون عندئذ أحداً شيئاً لا قليلاً ولا كثيراً، فالمقصود أن هناك شرطاً محذوفاً مقدراً يفهم من السياق، فالعرب تحذف من الكلام ما تتق معه بفهم السامع أو المخاطب. أم لهم نصيب من الملك فإذا لا يؤتون الناس نقيراً، أي: فلو كان لهم ذلك، فلو أعطوا ذلك، فإذا كان لهم شيء من هذا فإنهم يمنعون، ولا يعطون عندئذ أحداً من الناس شيئاً لا قليلاً ولا كثيراً.

{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْكُونَ أَنفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يَظْلُمُونَ فَتِيلًا} (٤٩) سورة النساء،

{فَمَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يَظْلُمُونَ فَتِيلًا} (٧١) سورة الإسراء]

يقول ابن كثير: "ولا ما يملأ النقيير، وهو النقطة التي في النواة وهو قول ابن عباس والأكثرين" المقصود أنهم لا يؤتون الناس شيئاً ولو كان حقيراً تافهاً قليلاً، فالحافظ ابن كثير حمل النقيير على أنها الحفرة الصغيرة أو النقطة التي تكون في ظهر النواة، والفتيل على أنه الخيط الذي يكون في الشق، أي أنهم لا يعطون الناس شيئاً ولو كان يسيراً لا يملأ إلا تلك الحفرة، ومعلوم أن اليهود أشد الناس بخلاً فهم عبدة الذهب وبقيت فيهم عبادة العجل جيلاً بعد جيل كما قال تعالى: {وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ} (٩٣) سورة البقرة].

وبعضهم يقول: إن النقيير هو ما نقر الرجل بأصبعه في الأرض، ويطلق النقيير أيضاً على الخشبة التي تنقر بالنحت عليها من الداخل بحيث تصبح تلك الخشبة بذلك النقر صالحة لوضع الأسقية فيها، وقد جاء في حديث وفد عبد القيس في الصحيحين أن النبي -صلى الله عليه وسلم- أمرهم بأشياء ونهاهم عن أشياء -ثم نسخ ذلك النهي فيما بعد- وكان من جملة ما نهاهم عنه المزفت والمقير والنقيير والدباء وكلها أوعية كانوا ينتبذون بها؛ لأن هذه الأوعية التي كانوا ينتبذون فيها كان يسرع إليها التخمر.

فالمقصود أنه إذا كان هذا يقال له: نقيير، والشق والنقطة المثقوبة في ظهر النواة يقال لها نقيير، وما ينقره الرجل بأصبعه يقال له: نقيير فإن ذلك يفهم منه أنهم لا يؤتون الناس شيئاً ولو كان حقيراً قليلاً تافهاً لا شأن له ولا خطر له، وهذا الذي ذهب إليه كبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله-.

إذن الفتيل هو الخيط الذي في شق النواة -على أحد التفسيرات المشهورة- والنقيير النقرة التي في ظهرها -وهذا أشهر التفاسير للنقيير وإن كان يطلق على الشيء التافه كما ذكرنا- والقطمير هو القشرة التي تغلف النواة، والله أعلم.

وهذه الآية كقوله تعالى: **{قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ}** [سورة الإسراء] أي: خوف أن يذهب ما بأيديكم مع أنه لا يتصور نفاذه، وإنما هو من بخلكم وشحكم؛ ولهذا قال تعالى: **{وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا}** [سورة الإسراء] أي: بخيلاً.

ثم قال: **{أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ}** [سورة النساء] يعني بذلك حسدهم النبي -صلى الله عليه وسلم- على ما رزقه الله من النبوة العظيمة، ومنعهم من تصديقهم إياه حسدهم له.

في قوله تعالى: **{أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ}** [سورة النساء] يحتمل أن تكون "أم" هذه منقطعة بمعنى أنها تفيد الانتقال فوبخهم على شيء ثم انتقل يوبخهم على شيء آخر هكذا: أم لهم نصيب من الملك فإذا لا يؤتون الناس نقيراً، أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله، فانقل من توبيخ إلى توبيخ آخر، بمعنى بل يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله.

يقول: "يعني بذلك حسدهم النبي -صلى الله عليه وسلم- على ما رزقه الله من النبوة العظيمة" فيكون لفظ "الناس" في قوله: **{أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ}** [سورة النساء] من العام المراد به الخصوص فالناس لفظ جنس عام لكنه قد يطلق ويراد به واحد كما في قوله تعالى: **{الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ}** [سورة آل عمران] فيكون المراد به النبي -صلى الله عليه وسلم- وهذا لا إشكال فيه، فقد كان اليهود يرجون أن يكون النبي الخاتم من الإسرائيليين فلما رأوا أنه من العرب حسدوه، حسدوه على ذلك فلم يؤمنوا به.

والإمام ابن جرير -رحمه الله- حمل لفظ "الناس" في قوله: **{أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ}** [سورة النساء] على النبي -صلى الله عليه وسلم- وأصحابه، ويمكن أن نقول أيضاً: إنهم حسدوا العرب؛ لأن النبوة انتقلت من بني إسرائيل إليهم، والله -عز وجل- يقول: **{ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا}** [سورة فاطر] فبعد أن كانت الرسالة والكتاب في بني إسرائيل عهداً متطاولاً انتقلت إلى غيرهم، وهذا شرف للنبي -صلى الله عليه وسلم- ولقومه حسدهم اليهود عليه، فقوله تعالى: **{عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ}** [سورة النساء] يعني من النبوة، وهذا ما عليه عامة المفسرين ومنهم ابن جرير -رحمه الله-.

ومنعهم من تصديقهم إياه حسدهم له؛ لكونه من العرب وليس من بني إسرائيل. وروى الطبراني عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- في قوله: **{أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ}** الآية [سورة النساء] قال ابن عباس: نحن الناس دون الناس.

قال الله تعالى: **{فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا}** [سورة النساء].

قول ابن عباس رضي الله عنهما: "نحن الناس دون الناس" يعني أنه عام لكن ليس المراد به جنس البشر وإنما المقصود به النبي -صلى الله عليه وسلم- وأصحابه، أو العرب أو هذه الأمة.

قال الله تعالى: **{فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا}** [سورة النساء] أي: فقد جعلنا في أسباط بني إسرائيل -الذين هم من ذرية إبراهيم -عليه السلام- النبوة وأنزلنا عليهم الكتب وحكموا فيهم بالسنن -وهي الحكمة- وجعلنا منهم الملوك.

يقول الله -عز وجل-: **{فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ}** فال إبراهيم حملة ابن كثير هنا على بني إسرائيل وهذا وجه معروف في كلام العرب حيث يطلق الآل ويقصد به تارة آل فلان بعينه وتارة يقصد به ذريته أو قومه أو أهله أو نحو ذلك، فالله -عز وجل- يقول في آية أخرى: **{أَدْخُلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ}** [سورة غافر] فالمراد بآل فرعون هنا فرعون وقومه ممن كانوا معه على الكفر دون من آمن كامرأته.

وقوله -تبارك وتعالى-: **{إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ}** [سورة آل عمران] قد يكون المقصود بالآل هنا إبراهيم وحده وقد يكون المقصود ما سبق في آية النساء، وكذلك الأمر في آل عمران -عليهم السلام جميعاً- وفي قولنا: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، فال محمد أتباعه على دينه وقد يراد به معنى أخص من هذا وهم أزواجه وأهل بيته، وقد يطلق ويراد به معنى أخص من ذلك أي علي وفاطمة والحسن والحسين -أصحاب الكساء-.

على كل حال فقوله تعالى: **{فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ}** [سورة النساء] يحتمل أن يكون آتينا إبراهيم، ويمكن أن يكون المراد بآل إبراهيم عقبه -صلى الله عليه وسلم- فإن ذرية إسحاق -عليه الصلاة والسلام- هم أسباط بني إسرائيل وكان فيهم الأنبياء، ويكون المراد بالكتاب بهذا الاعتبار جنس الكتاب أي الكتب التي نزلت على بني إسرائيل، أما إذا قلنا: إن المراد به إبراهيم فيكون المقصود به كتاب واحد وتكون "آل" عهدية ويعني صحف إبراهيم -عليه الصلاة والسلام-.

يقول: **{فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ}** [سورة النساء] الحكمة هي السنة، ومعلوم أن الحكمة إذا ذكرت مع الكتاب فإن المراد بها ما أوتيته الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- من وحي غير الكتاب.

قوله: **{وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا}** [سورة النساء] يمكن أن يراد بالملك الذي حصل لبني إسرائيل عموماً ومنه ملك داود -عليه الصلاة والسلام- ويمكن أن يكون المراد به ما ينطبق عليه هذا الوصف في ملك معين، فالملك العظيم المعروف هو ملك سليمان -عليه الصلاة والسلام- ولهذا حملها كثير من السلف ومن بعدهم على ملك سليمان، ومن هؤلاء الذين رجحوا هذا المعنى ابن جرير -رحمه الله تعالى- والآية تحتمل هذا وتحتمل معنى أعم من ذلك كما قال الله -عز وجل- عن موسى -صلى الله عليه وسلم- لما ذكرهم بنعمة الله -عز وجل- عليهم، ومن ذلك قوله: **{وَجَعَلَكُمْ مَلُوكًا وَأَتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ}** [سورة المائدة]، فالله جعل فيهم الملك وجعل فيهم النبوة والكتاب.

وجعلنا منهم الملوك ومع هذا **{فَمِنْهُمْ مَّنْ آمَنَ بِهِ}** أي بهذا الإيتاء وهذا الإيعام **{وَمِنْهُمْ مَّنْ صَدَّ عَنْهُ}** [سورة النساء] أي: كفر به وأعرض عنه وسعى في صد الناس عنه، وهو منهم ومن جنسهم من بني إسرائيل فقد اختلفوا عليهم، فكيف بك يا محمد ولست من بني إسرائيل؟.

وقال مجاهد: **{فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ}** أي: بمحمد -صلى الله عليه وسلم- **{وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ}** [(٥٥) سورة النساء].

قوله تعالى: **{فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ}** الضمير يرجع في الأصل إلى أقرب مذكور وهو المخبر عنه والمحدث عنه وهو ذلك الإفضال والإنعام الذي أعطاه الله -عز وجل- لبني إسرائيل، وهذا الذي مشى عليه ابن كثير -رحمه الله- حيث قال: "أي بهذا الإيتاء وهذا الإنعام" وهذا هو المتبادر والله تعالى أعلم.

ومن أهل العلم من يقول -كمجاهد-: **{فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ}** أي بمحمد -صلى الله عليه وسلم- وعلى هذا يكون عود الضمير إلى غير مذكور إلا ذكراً بعيداً، وهو قوله: **{أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ}** [(٥٤) سورة النساء] أي: محمداً -صلى الله عليه وسلم- إذا فسرت الآية بهذا.

وبعضهم يقول: الضمير يرجع إلى إبراهيم هكذا: **{فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا * فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ}** [(٥٤-٥٥) سورة النساء] أي: بإبراهيم -صلى الله عليه وسلم- وبعضهم يقول: يرجع إلى الكتاب، ولعل الأقرب -والله تعالى أعلم- أن المراد به ما ذكره الحافظ ابن كثير رحمه الله.

فالكفرة منهم أشد تكديباً لك وأبعد عما جئتهم به من الهدى، والحق المبين، ولهذا قال متوعداً لهم: **{وَكَفَىٰ بَجَهَنَّمَ سَعِيرًا}** [(٥٥) سورة النساء] أي: وكفى بالنار عقوبة لهم على كفرهم وعنادهم ومخالفتهم كتب الله ورسله.

{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصَلِّيهِمْ نَارًا كَلَّمًا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بِدَلْنَاهُمْ غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا * وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا ظِلِيلًا} [(٥٦-٥٧) سورة النساء].

يخبر تعالى عما يعاقب به في نار جهنم من كفر بآياته وصدّ عن رسله فقال: **{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا}** الآية [(٥٦) سورة النساء] أي ندخلهم ناراً دخولا يحيط بجميع أجزائهم.

قوله تعالى: **{نُصَلِّيهِمْ نَارًا}** تدل على الإدخال وتدل على الاحتراق، تقول: صليتته بالنار يعني أنه مسّه حرّها ولهبها، وكذلك تدل على الدخول كما في قوله تعالى: **{لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى}** [(١٥) سورة الليل] يعني لا يدخلها، والمعنيان متلازمان وذلك أن من دخلها احترق وقاسى حرها.

ثم أخبر عن دوام عقوبتهم ونكالهم فقال: **{كَلَّمًا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بِدَلْنَاهُمْ غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ}** [(٥٦) سورة النساء] قال الأعمش عن ابن عمر -رضي الله تعالى عنهما-: إذا احترقت جلودهم بدلوا جلوداً غيرها بيضاء أمثال القراطيس، رواه ابن أبي حاتم.

وروى ابن أبي حاتم عن الحسن قوله: **{كَلَّمًا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ}** الآية [(٥٦) سورة النساء] قال: تنضجهم في اليوم سبعين ألف مرة، قال حسين: وزاد فيه فضيل عن هشام عن الحسن: **{كَلَّمًا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ}** كلما أنضجتهم فأكلت لحومهم قيل لهم: عودوا فعادوا.

هذه الآية فيها كلام معروف للذين يتكلمون عن الإعجاز العلمي للقرآن فإنهم يقولون: إن العلم الحديث اكتشف أن مركز الإحساس في الجلد، وهذا معنى صحيح وهو شيء يدركه الإنسان وهو مدرك قديماً لكن فلسفته

العلمية لعلها عرفت بشكل ظاهر في هذا العصر، والإنسان يجد أنه إذا ذهب الجلد ذهب الإحساس، فهذا من الأمثلة الصحيحة على أن التفسير العلمي لا إشكال فيه.

وقوله: **{وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا}** [(٥٧) سورة النساء] هذا إخبار عن مآل السعداء في جنات تجري فيها الأنهار في جميع فجاجها ومحالها وأرجائها حيث شاءوا وأين أرادوا وهم خالدون فيها أبداً لا يحولون ولا يزولون ولا يبغون عنها حولاً.

وقوله: **{لَهُمْ فِيهَا زُجُوجٌ مُطَهَّرَةٌ}** [(٥٧) سورة النساء] أي: من الحيض والنفاس والأذى والأخلاق الرذيلة والصفات الناقصة.

هنا حذف المتعلق فما قال مطهرة من كذا، ولذلك فالأصل أنه يحمل على العموم فيقال: أي مطهرة من كل أذى حسي ومعنوي، فهي مطهرة من الأخلاق المرذولة التي توجب نفور النفوس ووقوع المشكلات بين الأزواج وكذلك مطهرة من كل أذى حسي مستقذر.

كما قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: مطهرة من الأقدار والأذى وكذا قال عطاء والحسن والضحاك والنخعي وأبو صالح وعطية والسدي، وقال مجاهد: مطهرة من البول والحيض والنخام والبيزاق والمني والولد.

وقوله: **{وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا}** [(٥٧) سورة النساء] أي: ظللاً عميقاً كثيراً غزيراً طيباً أنيقاً.

الظل الظليل يعني الظل الوارف التام، وهذه المعاني لها وقع عند العرب؛ لأنهم في بلاد حارة، ولهذا لما ذكر الله - عز وجل - نعيم الجنة قال: **{وَوَطَّحَ مَنْشُودٍ}** [(٢٩) سورة الواقعة] على أحد التفسيرين المشهورين في الآية أن الطح هو شجر الشوك المعروف في أرض الحجاز من بلاد العرب حيث يستظلون به وهو من شجر العضاة ولا تكاد تنتفع به أو تجلس حتى تتأذى بشوكه الذي يتساقط من تحته، فإله تعالى قال: **{وَوَطَّحَ مَنْشُودٍ}** [(٢٩) سورة الواقعة] وهم لا يتصورون أن يوجد هذا الشجر الذي يستظل به من غير شوك لكن يبدو أن شوكه قد أزيل كما قال الزجاج: يجوز أن يكون في الجنة وقد أزيل شوكه^(١).

قوله تعالى: **{وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا}** [(٥٧) سورة النساء] وصف الله ظل الجنة بأوصاف في آيات أخرى نحو كونه قد مَدَّ كقوله: **{وَوَظَلَّ مَمْدُودٍ}** [(٣٠) سورة الواقعة] وكقوله: **{أَكْهَأَ دَائِمًا وَظِلُّهَا}** [(٣٥) سورة الرعد] أي ظلها دائم لا ينقطع بخلاف ظل الدنيا الذي ينتقل هنا وهناك ويضمحل ويقصر.

ومن الآيات التي تذكر ظل الجنة قوله تعالى: **{إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلِّالٍ وَعُيُونٍ}** [(٤١) سورة المرسلات] وقوله تعالى: **{هُمُ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلِّالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَكِنُونَ}** [(٥٦) سورة يس] وغير ذلك من الآيات.

روى ابن جرير عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: **{(إن في الجنة لشجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها، شجرة الخلد)}**^(٢).

^١ - تفسير القرطبي (ج ١٨ / ص ٢٠٨).

^٢ - أخرجه أحمد (٩٩٥١) (ج ٢ / ص ٤٦٢) وقال الأرنؤوط: صحيح دون قوله "شجرة الخلد" وهذا إسناد ضعيف.

في الدنيا ربما تداعى الناس من أجل النظر إلى شجرة يزعمون أنه يجتمع أربعة من الرجال كلٌّ يمسك بيد الآخر حتى يحيطون بأصلها من ضخامتها، وهذه في مائة عام لا يقطعها الراكب، فإذا كانت الأرض كلها لو مشى الإنسان مائة عام على قدمه لقطعها فما هذه الشجرة؟!.

نسأل الله أن يرزقنا الجنة ونعيمها، إنه جواد كريم، والحمد لله رب العالمين.